وصف الطبيعة الساكنة وجماليتها

في شعر طرفة بن العبد

The Description of Silent Nature and Its Aesthetic in the Poetry of Tarfa ibn al-Abd

م.د. محمد إبراهيم أحمد
Lect.Dr. Mohammed Ibrahim Ahmed
جامعة سامراء / كلية التربية
Samarra University /College of Education
E-mail: mmasm20the@gmail.com

الكلمات المفتاحية: الطبيعة الصامتة، طرفة بن العبد، مظاهر الطبيعة في شعره.
Keywords: Silent Nature, Tarfa ibn al-Abd, Aspects of nature his poetry.

الملخص

للطبيعة ارتباط وثيق بالأدب وفي نتاج الشـــعراء، وهم يصـــوغون مشـــاعرهم تجاه تلك التفصـــيلات التي تلونت بها البيئة من جبال ووديان وأنهار وأشـــجار وأزهار وصـــحاري وحبات الرمل، وكذا الأمر تجاه الســـماء وهي تلتمع بالنجوم والكواكب والشـــهب، فتضـــمنت تلك الرؤى تقابلات بين مشـــاعر الحب والغزل وبين المعاناة والشـــكوى والألم، وهذا ما ســـيقوم البحث على محاولة رصده من ميزات اجتمعت في قالب شعري انبثق من قلب الجزيرة العربية ليطرق أسماعنا مما نظمه شـــاعر له ذكر جميل احتفظت به الســـير الشـــاعرية لمدد زمنية طويلة، وهو طرفة بن العبد الفتى القتيل أو الشـــاب القتيل، فعلى الرغم من أنه لم يعمر طويلاً، لكنَّ شـــاعرنا كان ظاهرة فنية، ولنبوغه الشـــعر في ســـن مبكرة أســـهم في أن يقوى عوده ويصـــح عموده، نجم عن ذلك مزية عكســـت القيمة الفنية لذلك العصـــر، الذي مهما دُرِسَ وجد الباحثون خبايا وميزات بحاجة للدراســـة والتوسع في البحث.

Abstract

Nature has a close connection with literature, and it is reflected in the works of poets as they express their feelings toward the details that paint the environment, such as mountains, valleys, rivers, trees, flowers, deserts, and grains of sand. Similarly, the sky, glittering with stars, planets, and meteors, is also depicted. These visions often include contrasts between emotions of love and passion, and feelings of suffering, complaint, and pain. This research will attempt to capture the features that converge within the poetic form originating from the heart of the Arabian Peninsula, reaching our ears through the verses of a poet whose name has been beautifully preserved in poetic history for a long time: Tarfa ibn al-Abd, the slain youth. Although he did not live long, our poet was a unique artistic phenomenon, and his early poetic brilliance helped solidify his stature and reinforce his artistic foundation. As a result, this reflects the artistic value of his era, which, despite being studied extensively, still holds hidden gems and features in need of further exploration and analysis

المقدمة:

الطبيعة ملهمة الشعراء في العصر الجاهلي:

حملت المدونة الشـعرية محاكاة للطبيعة ورسـم مفاصـلها لاسـيما في الشـعر الجاهلي، بوصفه يمثل الطريق الممهد للكثير من أوصاف الشعراء فيما بعد هذا العصر، فقد تهيأ للشعراء من تلك المظاهر المتنوعة أسـباب القول، واسـتهوته للتعبير عما يحيط به من مكنونات الحياة، وتفصـيلات الطبيعة بأسـلوب أدبي، فكان ذلك ظاهرة جمالية مؤثرة في نفسـية الشـاعر، فكانت الطبيعة من أقوى العوامل في انفعال الشاعر وتحريك مشاعره وأحاسيسه، فالشاعر متسلح بذائقة فنية ورهافة حسـية أوجدت تلازماً بين الشـاعر والبيئة المحيطة به، فشُـغِفَ الشـعراء بتفصـيلات الطبيعة، فكانت التنوعات الجمالية في نظر الشاعر والتنقل بين صورها قد أضفى تشذرات متلونة بألوان مختلفة، تنعكس من خلالها نفسـية الشـاعر وهو يطالع تلك المتغيرات لتمهد له اسـتثمار الطبيعة في إبراز صـورة معبرة عن ذاتية الشاعر وأفكاره، وأن للطبيعة جمال أخاذ، فكان الشاعر الجاهلي أكثر قرباً وتعلقاً ببيئته الصـحراوية، كما هو معهود أن الجاهلي في بيئة صـحراوية قائمة على التنقل المسـتمر، وبما أن تلك البيئة مفتقرة لمظاهر الدعة، والنغم اللطيف، من أشـجار وأزهار وروضـات غناء، إلا أنَّ العربي اسـتطاع أن يتكيف ويعيش ويتآلف معها، على الرغم من قسـاوتها وخشـونتها فأبدع صـوراً كانت تعكس تمكنه من تطويع تلك البيئة لمفهومه الخاص في التعبير عما يريد بطريقة متفننة وفريدة، لذا سـيكون الحديث عن توافر مظاهر الطبيعة في شـعر طرفة بما توفر من تلك التكوينات في شعره.

أهمية الدراسة:

إن دراسـة الطبيعة في شـعر طرفة بن العبد على الخصـوص وفي الشـعر العربي على العموم له أهمية كبيرة، سواء كان من الناحية الجمالية أو الفكرية، فللطبيعة أثر في صقل مشاعر وأحاسيسه، وأنها مصدر إلهام وتأمل، وأنها المجال الخصب للتأمل في رفد الشاعر بالأفكار التي تسـهم في رسـم صـوره، فينتج عن اسـتلهام الطبيعة إبراز للجمال بوسـائل بلاغية تعكس قدرة الشـاعر الفنية المعبرة، فضـلاً عن ذلك كانت الطبيعة بمثابة المرآة للذات الشـاعرة، والانتماء والهوية الثقافية التي ربطت الشـاعر ببيئته، فكانت تلك الأدوات تمنح الروح في مد هذه الدراسـة من السير على حبات تلك البيئة واستنطاق مفردات الشاعر لتحيل لنا صوراً جميلة، وهناك الكثير من الدراسـات التي اهتمت بالطبيعة، منها ما كانت بصـورة كاملة للتعبير عن الطبيعة ومختلف العصـور، على سـبيل المثال لا الحصـر، دراسـة شـعر الطبيعة في الأدب العربي للدكتور سـيد نوفل، ومثلها أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي للدكتور احمد محمد الحوفي، والطبيعة في الشعر الجاهلي للدكتور نوري حمودي القيسي، ومنها أيضاً شعر الطبيعة في الأدبين الفاطمي والأيوبي

للدكتور بهاء حسب الله، ومنها ما جاء ضمناً في دراسته، وكذلك أفردت الكثير من الدراسات الأكاديمية والبحوث التي نظمها الأساتيذ، فكل ما سبق كان دافعاً للدراسة في هذا الموضوع ولا سيما عند شاعر له قيمة أدبية ومكانة شعرية في شعرنا التليد.

مظاهر الطبيعة الصامتة في شعر طرفة:

لم يخل شعر طرفة من وصف مظاهر الطبيعة شأنه شان غيره من شعراء عصره الذين أخذوا بأسباب القول والدافع الشعري في استثمار بيئتهم الصحراوية التي كانت " تملأ قلبه ونفسه وكيانه، وتوجه تفكيره وعاطفته وخياله، فكانت طبيعة بلاده رهيبة تتجلى له دون حجاب، فيراها سافرة بكل ما فيها من قوة وحرارة، ويعيش أبداً معها " (الفاخوري،١٩٨٦م،ص٩٤)، فهي تمثل وسيلة الاستمتاع بجمال الطبيعة والحياة، إذ يجد فيه القارئ ما استتر وما ظهر من جمالها مصوراً مفسراً، فكان ذلك ما يعبر عن مسرة النفس وسلوى الحزين يجد فيه الأديب متنفساً لهمومه وأكداره، ويجد فيه الفرح صورة لشعوره (الشايب،١٩٩٤م،ص٨١) ' فالشاعر وهو يتحدث عن مظاهرها بواقعية، ويصوغ لها الكلمات النابضة مع دقات قلبه بأسلوب رشيق وسلاسة، فبيئته واضحة لا تحتاج إلى التزويق أو التأمل العميق، فكان الشاعر يضمن صور الطبيعة في شعره ويشد ازرها بجزئياتها فكان للطبيعة أثر جليّ وساعد قويّ في نتاجات الأدباء (عيسى،د.ت،ص١١٨) ، وبما أن حياة العرب كانت قائمة على الحل والارتحال والتنقل سعياً وراء الكلأ ومنابت العشب وموارد الماء (قناوي،د.ت،٢٢٤/١)، أضفى هذا التنقل صوراً طبيعية متشذرة هو " من أروع ألوان الجمال التي تهش لها النفس، وتستجيب لها في فرحة وانطلاق " (قطب،د.ت،ص١٤٣)، ومن أكثر ما دار على ألسنة الشعراء الجاهليين ذكر الطلال فأفاضوا بالحديث عنها يقول طرفة من الطويل (بن العبد،٢٠٠٠م، ص٢٣):

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ تَلُوحُ كَبَاقي الوَشْمِ فِي ظَاهِرِ اليَدِ

ترى أن البيت ممتلئ بالحديث عن الديار وأطلالها والأماكن التي تعلق قلبه بها وتبينت كالوشم الظاهر في الذراع والذي تثبت بالنقش، والأطلال هي " أهم أوصاف الطبيعة الساكنة وأكثرها في شعرهم تناولاً " (قناوي،د.ت،٢٢٥/١)، فكان حديثهم عنها سمة بارزة حتى أن ابن قتيبة عدّها من الموجبات على الشعراء الالتزام بها بقوله " وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أنَّ مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار " (ابن قتيبة،١٩٨٧م،ص٣١)، أضحت صور الطلل من موضوعات الحياة اليومية للشعراء فكان حديثهم يتأتى من " أن ذوق الشاعر وتجربته الذاتية كانا وراء اختياره لموضوعات صوره وتشكيلها في أوضاع مختلفة تساق جميعاً نحو المواءمة والاتساق " (الرباعي،١٩٨٠م،ص٤٥)، فهذا التعلق بالطلل ناجم من زخم الذكريات

المرتبط الأرض والمنازل والديار حتى لتصـل إلى قوة كبيرة في رفض ما يصـيب تلك الديار من بلى وانحسار معالمها واندثارها إذ يقول من الطويل(بن العبد،٢٠٠٠م،ص٨٩):

لِهِنْـدٍ بِحَـزَّانِ الشُّـرَيْفِ طُلُـولُ تَلُـوحُ وَأَدْنَـى عَهْدِهِـنَّ مُحِيْـلُ
وَبِالسَفْـحِ آيَـاتٌ كَـأَنَّ رُسُومَهَـا يَمَـانٍ وَشَتْـهُ رَيْـدَةٌ وَسُحُـولُ

التجربة الذاتية لطرفة أمدته بالقدرة على ترسـيخ المفاهيم التي تعطي صـورة فنية رسـمت بريشـة رسـام حذق حتى غدت ناطقة بلا لسـان ووهبت تلك الأبيات الروح للجمادات وكأنها تتلفظ الكلمات بلسان مفوَّهٍ.

ونجد في حديثهم صوراً أخرى، كتشبيه الهوادج التي تحمل النساء أثناء التنقل بالصحاري بالسـفن التي تمخر عباب البحر، وتشـقُّ طريقها بين أمواجه، لتبغي غايتها التي تريدها كقول طرفة من الطويل (بن العبد،٢٠٠٠م،ص٢٤-٢٥):

كَـأَنَّ حُـدُوجَ المَالِكِيَّـةِ غُـدْوَةً خَلَايَـا سَفِيْـنٍ بالنَّوَاصِفِ مِـن دَدِ
عَدَوْلِيَّـةٌ أَوْ مِنْ سَفِيْـن ابْـن يَامِن يَجُـورُ بِهَـا المَلَّاحُ طَـوْرَاً وَيَهْتَدِي
يَشُقُّ حَبَـابَ المَـاءِ حَيْزُومُهَا بِهَا كَمَـا قَسَـمَ التـرْبَ المُغَـايِلُ بِاليَـدِ

وتنوع الوصـف عنده فشبه عنق ناقته الطويل بسكان الزورق لتكتمل الصـورة وتبرز بدقة الوصف (بن العبد،٢٠٠٠م،ص٣٦):

وَأَتْلَـعُ نَهَّـاضٌ إِذَا صَعَّـدَتْ بِـهِ كَسُكَّـان بُوصِـيٍّ بِدِجْلَـةَ مُصْعِـدِ

وبعد يتنوع االحديث فيأخذنا طرفة بصـوره للحديث عن الأشـجار وتشـبيهاته المميزة كمثل تشـبيهـه لقلوب الطير في عش العقـاب بنوى التمر اليـابس بقولـه من الطويـل (بن العبد،٢٠٠٠م،ص ١٤٦):

كَأَنَّ قُلُوبُ الطَّيْرِ فِي قَعْرِ عُشِّهَـا نَوَى القَسْبِ مُلْقىً عِنْدَ بَعْـضِ المَآدِبِ

هذا التلون الفني في الخلط بين صـور الطبيعة أخذ الشـعراء ليطوفوا بين فيافيها لتمتزج طاقة تعبيرية لأعطت جمالاً وهم يجمعون بين الشـجر والحيوان فقد شـبه طرفة صـدور الخيل بأعناقها الطويلة بجذوع النخل التي ألقى عنها قشرها في الطول والجذع إذا شذب بدا أطول وهي كذلك الخيول بدت بأعناق طويلة فيقول من الرمل (بن العبد،٢٠٠٠م،ص٧٨):

وَأَنَـافَتْ بِهَـوَادٍ تُلُـعِ كَجُـذُوعٍ شُـذِّبَتْ عَنْـهَا القُشُـرْ

وللريـاض ذكر لا يخفى وكمـا يـذكر يـاقوت الحموي أنهـا مئـة وسـتـة وثلاثون روضة(الحموي،١٩٧٧م،٨٣/٣) ذكرها الشعراء في عدة مواقف ومنها يذكر طرفة روضة دعمي (الحموي،١٩٧٧م،٨٩/٣)، من الطويل(بن العبد،٢٠٠٠م،ص١٥١):

فَرَوْضَـةِ دُعْمِـيٍّ فَـأَكْنَافِ حَـائِلٍ وَقَفْتُ بِهَـا أَبْكِـي وَأَبْكِي إِلَى الغَـدِ

وكذلك البرقة وهي لبني دارم (الحموي،١٩٧٧م،٢٩٣/١) والتي افتتح بها معلقته من الطويل، وقد مرَّ ذكره (بن العبد،٢٠٠٠م،ص٢٣):

لِخَوْلَـــةَ أَطْـــلَالٌ بِبُرقَـةَ ثَهْمَـــدِ تَلُوحُ كَبَاقِي الوَشْمِ فِي ظَاهِرِ اليَـدِ

ومن خلال تلك الأوصاف نجد أن طرفة شأنه كغيره من الشعراء فقد رسم تلك اللوحات الفنية وهو يتذوق سحر جمال الطبيعة وأحس بها ذوقاً مرهفاً وبلاغة مفعمة بالتميز الشعري.

وللمطر شأن بين المظاهر الطبيعية السماوية الأخرى التي أوردها الشاعر وهو يصوغ أبياتاً في تصوير المطر لتأخذ دوراً مبدعاً وهو يختار بذكاء الوقت الذي يتناسب مع الجود والكرم حينما يكون هناك حاجة لبذل المعروف وقت الشـــحّة ونشّ الغدران (أبو ســـويلم،١٩٨٧م،ص ١٨٣)، فينقل تلك الصورة من الطويل (بن العبد،٢٠٠٠م،ص١٣٦):

إِنَّـا إِذَا مَـا الغَيْـمُ أَمْسَـى كَـأَنَّهُ سَمَاحِيقُ ثَرْبٍ وَهْيَ حَمْـرَاءُ حَـرْجَفُ
وَجَـاءَتْ بِصُـرَّادٍ كَـأَنَّ صَقِيعَـهُ خِـلَالَ البُيُـوتِ والمَبَـارِكِ كُـرْسُفُ
وَجَاءَ قَرِيعُ الشَّوْلِ يَرْقُصُ قَبْلَهَـــا إِلَى الدِّفْءِ والرَّاعِـي لَهَـا مُتَحَـرِّفُ
نَرُدُّ العِشَـــارَ المُنْقِيَاتِ شَظِيُّهَـــا إِلَـى الحَـيِّ حَتَّـى يُمْـرِعَ المُتَصَيِّفُ
تَبِيْتُ إِمَاءُ الحَيِّ تَطْهَى قُدُورَنَـــا وَيَـأْوِي إِلَيْنَـــا الأَشْعَثُ المُتَجَـرِّفُ

يصـــور طرفة في هذه الأبيات تلك العلاقة الحميمية بين أبناء هذه القرية، وقيام الإماء بالســهر لأجل إنضــاج الطعام غير مكترثات للعناء والتعب وتقديم ذلك الطعام بعدما حل الجوع بالناس، وأن الأرض خلعت رداءها الأخضر واجدبت الأرض وانقطع المطر واشتدت بردة السماء وصـفرت الرياح ببرودتها، وجاءت السـحب التي لا تسـقط المطر بل بعثت كرات الثلج الأبيض وكأنها أصواف قطن امتلأت بها الأرض وغطت المنازل لتشيخ بذلك اللون الأبيض، إنها صورة قاسية البرودة لكنها دافئة المعنى نابعة من عادات وقيم اعتز العرب بكرمهم وسخائهم.

إن ارتباط المطر بالطلول والذي يسهم في رصد الحالة النفسية المعبرة عن مشاعر الألم التي يعيشــها القاطن زمناً في تلك البقعة وتجول في أفيائها ذكرياته، ومجيء المطر يكون عاملاً يسهم في محو مشاهد جميلة في ذاكرة العربي الذي انتسب لها انتساباً وثيقاً فضجت روح الشاعر بالرفض لذلك الاندثار والتحلل من تلك الرسوم الجميلة التي اطمأن لها، لتقف بثبات نحو التمسك بالحياة عبر تصـوير فني، وفي باب آخر نجده يتحدث عن المطر وارتباطه بعادة اعتادت العرب على فعلها في أيام الشـتاء الباردة والماطرة من جعل البيوت متقاربة من بعضـها البعض ابتغاء الدفء، وهذا يجعلهم أكثر تقارباً لا ســيما وهم يتقاســمون الطعام فيما بينهم وهذا التقارب يوطد العلاقات ويزيد لحمة التآصر بينهم فتنشئ ألفة ومودة، ويزيد من ذلك أنهم لا يخشون الحاجة أو

الفقر وهم يتقاسـمون الطعام بينهم فيصـف طرفة ذلك المشـهد بأجمل تصـوير من الكامل (بن العبد،٢٠٠٠م،ص١٣٢-١٣٣):

إِنِّـــي مِـن القَـــوْمِ الَّذِيْـــنَ إِذَا ... أَزَمَ الشِّتَـــاءُ وَدُخِلَـــتْ حُجَـــرُهْ
يَوْمَـــاً وَدُنيَت البُيُـــوتُ لَـــهُ ... فَتَنَـــى قُبَيْـــلَ رَبِيْعِهِـــم قِـــرَرُهْ
رَفَعُـوا المَنِيـحَ وكَـانَ رِزْقُهُـمُ ... فِـــي المُنْقِيَـــاتِ يُقِيمُـــهُ يَسَـــرُهْ
شَرْطَـــــاً لَيْسَ يَحْسَبُـــــهُ ... لَمَّـــا تَتَـــابَعَ وِجْهَـــةً عَسَـــرُهْ
تَلْقَـــى الجِفَـــانَ بِكُلِّ صَـــادِقَةٍ ... ثُمَّـتْ تُـــرَدَّدُ بَيْنَهُـــمْ حِيَـــرُهْ
وَتَـرَى الجِفَـــانَ لَدَى مَجَـــالِسِنَا ... مُتَحَيِّـــــرَات بَيْنَهُـــمْ سُـــؤَرُهْ
فَكَأَنَّـــهَا عَقْـــرَى لَـــدَى قُلُـــبٍ ... يَصْفَـــرُّ مِـــنْ أَغرَابِهَـــا صَقَـــرُهْ
إِنَّـــا لَنَعْلَـــمُ أَنْ سَيُدْرِكُنَـــا ... غَيـــثٌ يُصِيـــبُ سَوَامَنَـــا مَطَـــرُهْ

إن تجسـيد الحديث عن الشـتاء والمطر يأخذ بنا نحو فكرة اجتماعية جامعة بين زخات المطر التي تروي الأرض لتنبت العشب وتكتسي بلباس أخضر وهذا يرمز إلى مفهوم الترابط مع الكرم والسـخاء وهي مزية عظيمة وخلّة كريمة اتصـف بها العرب ولطالما تغنوا بتلك العادة في أشعارهم.

وتنوعت صـور الحديث عن الطبيعة كفكرة الربط بين المطر ومظاهر أخرى في محيط الشـعراء كالارتباط بين المطر والحيوانات التي كانت من محاور حديث الشـاعر كالعلاقة القائمة بين المطر والناقة فقد شبه الشعراء جماعات الإبل وكأنها أكوام من الغيوم مشبهين سرعتها بين البطء كسـير السـحاب أو مسـرعة، وكطوع السـحاب للريح وأصـواتها بهزيم المطر (أبو سويلم،١٩٨٧م،ص١٩٣)،وهذا ما وصفه طرفة من الطويل(بن العبد،٢٠٠٠م،ص ٩٨-٩٩):

فَلَا زَالَ غَيْثٌ مِنْ رَبِيْـعٍ وَصَيْـفِ ... عَلَى دَارِهَـا حَيْثُ اسْتَقَـرَّتْ لَهُ زَجَـلْ
مَرَتْهُ الجَنُـوبُ ثُمَّ هَبَّتْ لَـهُ الصَّبَا ... إِذَا مَسَّ مِنْـهَا مِسْكَنَـاً عُـدْمُلَاً نَـزَلْ
كَـأَنَّ الخَلَايَا فِيْـهِ ضَلَّتْ رِبَـاعُهَا ... وَعُوذَاً إِذَا مَـا هَـزَّهُ رَعْـدُهُ احْتَفَـلْ

يصـور شـاعرنا تلك السـحب وكأنها نوق عشـار والسـماء كالناقة والريح هي التي تقوم بحلب الناقة وتدرُّ السـماء بالخير وهو المطر النقي الذي يسـقي الأرض لتزهر ويعم الخير المعمورة.

ومن مشاهد الطبيعة التي حضرت تحت منظار شاعرنا صورة السيل وهو يغرق أحجار الضباب التي لم تستطع الخروج فماتت وطفت فوق الماء، فرسم طرفة صورة بديعة لذلك المشهد بقوله من الخفيف (بن العبد،٢٠٠٠م،ص١٤٠):

وَضِبَـاب سَفَـرَ المَـــاءُ بِهَـــا ... غَـــرَقَتْ أَوْلَاجُهَـــا غَيْـــرَ السَّـــدَدْ

فَهْـيَ مَوْتَـى لَعِـبَ المَـاءُ بِهَـا فِـي غُثَـاءٍ سَاقَـهُ السَّيْـلُ عُـدَدْ

وأحياناً نجده يسـتثمر مزج صـور المطر بالحيوانات ومن تلك الحيوانات التي أخذت نصـيبها في ذلك الوصـف الناقة في هذا الارتباط الطبيعي مع المطر، اذ جعلوا من هذا التمازج صـورة لدفعات المطر التي يكون وقتها عشـيَّةً لذلك كانت أكثر قوة وعنفاً بما يوحي بالمباغتة والمداهمة (أبو سويلم،١٩٨٧م،ص١٩٩)، فيقول طرفة في ذكر صورة المطر المقتطفة من صورة الفرس من السريع (بن العبد،٢٠٠٠م،ص١٤٩–١٥٠):

حَمَلْـتُ بَـزِّي فَـوْقَ عَيْـرَانَةٍ مُدْمَجَـةٍ ذَاتِ جِـرَاءٍ سَبُـوحْ

مَرْفُـوعُهَا زَوْلٌ وَمَـوْضُعُهَا كَمَـرِّ غَيْـثٍ لَجِـبٍ وَسْـطَ رِيـحْ

تَثْعَـبُ بِالفَـارِسِ ثَعْبَـاً كَمَـا يَثْعَـبُ بِالقَرْقَـرِ مَـاءُ النَّضِيـحْ

ومن معتقدات العرب أن الطبيعة مصـدر السـخاء والهبة فكان افتخار طرفة بصـفة الكرم والبذل وإكرام الضيف، وتمجيد تلك السمة الحميدة أن نفسه تأنف وتأبى أن يكون مسكنه ومستقره التلاع، ولأنها تصلح أن تكون مكاناً للاستتار، بعكس المكان المرتفع الذي يهتدي إليه الضيوف ويقصدوه وهذا ما ذكره بقوله من الطويل (بن العبد،٢٠٠٠م،ص٤٢):

وَلَسْتُ بِمِحْـلَالِ التِّـلَاعِ لِبَيْتِـهِ وَلكِنْ مَتَـى يَسْتَـرْفِدِ القَـوْمُ أَرْفِـدِ

وهو الذي يقف على السـواء من الغني والفقير، فيكرم الفقير ويحنو عليه ويحسـن لهم ويخالط الأغنياء وينادمهم (بن العبد،٢٠٠٠م،ص٤٥):

رَأَيْتُ بَنِـي غَبْـرَاءَ لا يُنْكِرُونَنِـي وَلَا أَهْـلُ هَـذَاكَ الطِّـرَافِ المُمَـدَّدِ

إن اسـتثمار الطبيعة في تصـويره يمنح أبياته انسـجاماً فنياً وتضـفي على عباراته عبقاً برحيق النسيم لتتشكل صورة من معالم البيئة المتنوعة التي يطالعها ويتحسسها ذوقاً وبراعة.

ويستوقف الليل الذي يشكل سمة فريدة من صور الطبيعة والتي ارتسمت بها أشعار طرفة فكانت تلك الظاهرة تشكل جزءاً حيوياً في قصـائده، فقد كان لليل في مدونته حضـور مميز كغيره من الشـعراء الذين وظفوا هذه الظاهرة وتحدثوا عن أدق التفاصـيل التي عكسـت ارتباطاً فنياً ناجم عن تجربة واعية لما يحيط بها، فكان حديثه عن الطبيعة متصلاً بأدق تفصيلاتها لأن الشاعر قد وهب حساً مرهفاً بوحدات بيئته من صـحاري وفلوات وأصـوات مسموعة أو أصـدائها، فكان يلملم تلك الخيالات بأجمل التصـاوير وأبدع التآليف (القيسـي،١٩٧٠م،ص٢٣٦) , وقد اسـتثمر طرفة مفهوم الليل بما له ارتباط به لا سيما اللون الأسود فقد كان له صـلة بمفاهيم خاصـة عند العرب فهو يمثل الحلكة والعتمة وانعدام الرؤية لذا فُسِّـرَ بأنَّه مشـيرٌ للحزن ونذير الشـؤم وقد عدَّه من العلماء في المرتبة الأولى في قائمة الألوان (عمر،١٩٩٧م،ص١٨٦) ، فكان حضـور اللون

الأسود عند طرفة كتعبير عن سواد الليل بأنَّه كأس المنية أو قدح السم الأسود لما حال بينه وبين حبيبته إذ يقول من الطويل (بن العبد،٢٠٠٠م،ص١٨٣-١٨٤) :

وَأَرْعَنَ مِثْلِ اللَّيْلِ مَجْرٍ يَقُودُهُ أَرِيْبٌ إِذَا مَا سَاوَرَ الأَمْرَ أَبْرَمَا
شَدِيْدُ القُوَى ضَخْمُ الدَّسِيعَةِ مقْوَلٌ أَبِيٌّ إِذَا مَا هَمَّ بِالفَتْكِ أَلْحَمَا
وَرَدْنَا وَقَدْ هَابَتْ مَعَدٌّ شَذَاتَهُ وَقَدْ رَفَعَ الرَّايَاتِ فِيْهَا وَسَوَّمَا
بِضَرْبٍ يُزِيْلُ الهَامَ عَنْ سَكَنَاتِهِ وَطَعْنٍ إِذَا مَا مَارَ فِي الجَوْفِ أَثْجَمَا

كما أن للصحراء أبعاداً شاسعة لها في القابل امتداد واسع في السماء التي تلتمع فيها الشمس ويتلألأ فيها نور القمر والنجوم وهذا ما أثرى ميدان الشعر بصور مختلفة ومعان متعددة انعكس على ما جادت به قرائحهم وتنوع الدلالات التي تحملها تلك الأجرام السماوية في تغلغلها في القصائد، واختلفت تلك الاستعمالات على وفق رؤية الشاعر ونفسيته، لذا فقد ذكر طرفة الشمس للتغزل بمحبوبته فكانت الشمس مصدراً خصباً في التعبير فيقول فيها من الطويل (بن العبد،٢٠٠٠م،ص٦٦):

بَدَّلَتْهُ الشَّمْسُ مِنْ مَنْبِتِهِ بَرَدَاً أَبْيَضَ مَصْقُولَ الأَشُرْ
وإِذَا تَضْحَكُ تُبْدِي حَبَبَاً كَرِضَابِ المِسْكِ بِالمَاءِ الخَصِرْ

فثغر حبيبته ينماز ببياض أسنانها وفي هذا دلالة على حسنها وجمالها، وإنما قرن ذلك البياض بالشمس لمكانة وقداسة الشمس في المعتقد الجاهلي بوصفه جرم سماوي مميز بين الكواكب (حسن،١٩٨٨م،ص١٢٦) ومن متعقدهم وتخيلاتهم أنها تبدل السن الساقط بأحسن منه حتى لتغدو الأسنان ناصعة كاملة الجمال، ويسترسل في غزله وإضفاء ضوء الشمس وشعاعها الجميل الذي يجعل حبيبته تزهو بجمال لافت فعند سقوط أشعة الشمس على ثغرها فتصقله ويتبين جماله للناظر، أما ريقها فيرمز به للدفء وهذا التمازج بين الطبيعة مرتكزة على الشمس وبين الحبيبة فتنتج صورة بديعة من مثل قوله من الطويل (بن العبد،٢٠٠٠م،ص٢٦-٢٧):

خَذُولٌ تُرَاعِي رَبْرَبَاً بِخَمِيْلَةٍ تَنَاوَلُ أَطْرَافَ البَرِيْرِ وَتَرْتَدِي
وَتَبْسِمُ عَنْ أَلْمَى كَأَنَّ مُنَوّرَاً تَخَلَّلَ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصٌ لَهُ نَدِي
سَقَتْهُ إِيَّاهُ الشَّمْسِ إِلَّا لِثَاتِهِ أَسِف وَلَم تَكْدُمْ عَلَيْهِ بِأَثْمَدِ

بدت أسنان معشوقته أشد لمعاناً وكأن الشمس أعارته ضوءها، ومن عادات نسوة العرب تذر الأثمد على الشفاه وهذا يعطي الأسنان لمعاناً أشد (الآلوسي،د.ت، ٣١٨/٢) وبريقاً أنصع، ولم يكتفِ طرفة بوصف ثغر الحبيبة بل انتقل لوصف وجهها بالشمس التي كسته بهاءاً وجمالاً وتتخذ لونها من لون الشمس وأن الشمس كأن لها رداءاً أحلته عليها لتزدان بذلك الحسن الفتان وذلك الصفاء النقي، فيقول من الطويل (بن العبد،٢٠٠٠م،ص٢٧):

وَوَجْـهٌ كَـأَنَّ الشَّمْسِ حَلَّتْ رِدَاءَهَا عَلَيْـــهِ نَقِـــيُّ اللَّـــوْنِ لَـــمْ يَتَخَـدَّدِ

ويسـتحضـر طرفة القمر في حديثه بلمحة شـعرية فيها من الاسـتهزاء والتهكم في هجائه للملكين قابوس بن المنذر وعمرو بن هند حينما قصرا في حمايتهما لجواره لهما بعدما سُرِقَت إبله من أرضهما فيقول من الطويل (بن العبد،٢٠٠٠م،ص١٦٠-١٦١):

وَكَانَ لَهضا جَارَانِ قَابُوسُ مِنْهُمَـا حِـذَاراَ وَلَـمْ أَسْتَرْعِهَـــا الشَّمسَ والقَمَـــر

وَعَمْرُو بنُ هِنْدٍ كَانَ مِمَّنْ أَجَارَهَـا وَبَعْضُ الجِـوَارِ المُسْتَغضاثِ بِهِ غَـــرَرْ

وهنا يحاول الشـاعر ايصـال رسـالته بأنه لو اسـترعاها القمر لرعاهها، وهذه دلالة على الاستهزاء من الملكين والحط من شأنهما لأنهما لم يؤديا حق الجار وحمايته.

الخاتمة:

وفي ختام هذا الحديث يمكن أن نوجز ما أخذنا بأطرافه من صور ولوحات شعرية متقنة:

١ – إن شاعرنا طرفة بن العبد هو شاعر كان في مصاف الشعراء المتقدمين وشهد له كثر بأنه شاعر مبدع متفنن في القول الشعري.

٢ – وجد البحث أن طرفة هو شـــاعر مقل لأنه قتل وهو في مقتبل العمر على الرغم من طرقه القول الشعري في حداثة سنه لكن الحياة من تمد له بأسباب البقاء، فقد ترك خلفه نصوصاً إذا ما قورنت بغيره فهي قليلة، لكنها انمازت بالتقانة والرصانة.

٣ – للطبيعة ارتباط بحياة العربي الجاهلي فهي حياة صحراوية قاسية كثيرة التنقل والترحال بحثاً عن موارد الماء، وهذا التنقل له منعطفات في حياة الشاعر انبثق منه صوراً لما يراه ويحس به حلاوة ومرارة.

٤ – ان الطبيعة العامة للجزيرة العربية بما حتوته من مظاهر طبيعية ومنها ما خصت به الدراسة الطبيعة الصـــامتة من أطلال أو رياض أو نبات وأشـجار أو ما له تعلق بالسـماء كالمطر والرياح والشـمس والقمر تسـور كالقلادة أمدَّ الشـعراء بطاقات تعبيرية للتعبير عما يدور في دواخلهم ووجدانهم ومشاعرهم.

٥ – وجدنا أن لطرفة قدرة على اسـتثمار المظاهر الطبيعية واسـقاطها بطريقة يحاكي فيها حالته النفسـية وأحاسـيسـه كتصـوير ضـوء الشـمس ولمعانه بثغر الحبيبة هذا من جانب المتعة والعاطفة، في حين أورد ذكراً للقمر والذي كثيراً ما نقرأ للشـــعراء أنه رمز للحب والســـكنية ومبعث النور والهدوء، فجاء تصـــويره هنا في باب الهجاء لا في باب العاطفة الفنية والدفء النفسي، وهذا ما وجدناه أيضاً عند تصوير الرياح والمطر الذي أعطى بعداً لمظهر الكرم.

٦ – إن الشعر الجاهلي أرضية خصبة وواحة خضراء تطلب منها ما شئت لا تنضب ودائماً تلق ما تريد من فرائد ونفائس الصور.

المصادر والمراجع:

١ – الآلوسي البغدادي. السيد محمود شكري. (د. ت). بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. تصحيح وضبط: محمد بهجة الأثري.(د. ط). دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.

٢ – ابن قتيبة. ابو عبد الله محمد بن مسلم.(١٩٨٧م).الشعر والشعراء.قدم له: الشيخ محمد تميم، راجعه. الشيخ محمد عبد المنعم العريان.(ط٣). دار إحياء العلوم. بيروت. لبنان.

٣ – أبو سويلم. د. أنور.(١٩٨٧م). المطر في الشعر الجاهلي.(ط١). دار الجيل. بيروت. لبنان.

٤ – حسن. د. حسين الحاج.(١٩٨٨م).الأسطورة عند العرب في الجاهلية.(ط١). المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان.

٥ – الحموي الرومي البغدادي. للشيخ الامام شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت بن عبد الله. (١٩٧٧ م).معجم البلدان .(د. ط). دار صادر. بيروت. لبنان.

٦ – الرباعي . د. عبد القادر.(١٩٨٠م). الصورة الفنية في شعر أبي تمام. (ط١). منشورات جامعة اليرموك. أربد. الأردن.

٧ – الشايب، أحمد. (١٩٩٤م).أصول النقد الأدبي.(ط ١٠).مكتبة النهضة المصرية.

٨ – الشنتمري. شرح الاعلم.(٢٠٠٠ م). ديوان طرفة بن العبد. تحقيق: درية الخطيب ولطفي الصقال.(ط٢). المؤسسة العربية. بيروت. لبنان.

٩ – عيسى.عبد العزيز محمد.(د. ت). الأدب العربي في الأندلس.(د. ط). مطبعة الاستقامة.

١٠ – عمر. د. أحمد مختار. (١٩٩٧ م). اللغة واللون.(ط٢).عالم الكتب. القاهرة.مصر.

١١ – الفاخوري. حنا.(١٩٨٦م). الجامع في تاريخ الأدب العربي.(ط١). دار الجيل. بيروت. لبنان.

١٢ – قطب. محمد.(د. ت). منهج الفن الاسلامي.(ط٦). دار الشروق. بيروت.

١٣ – قناوي.عبد العظيم.(د. ت). الوصف في الشعر العربي.(د. ط). مطبعة مصطفى البابي الحلبي. مصر.

١٤ – القيسي. د. نوري حمودي.(١٩٧٠م). الطبيعة في الشعر الجاهلي. (ط١). الشركة المتحدة للتوزيع. بيروت. لبنان.

References:

1 - Al-Alusi Al- Baghdadi. Sayyid Mahmoud Shukri.(n.d). Reaching the goal in knowing the condition of the Arabs Correction. (n.d). Muhammad Bahjat Al-Athari. Dar Al-ilmiyyah. Bairut. Lebanon.

2 - Ibn Qutaybah. Abu Abdullah Muhammad Bin Muslim.(1987AD). poetry and Poets. Introduced by. Sheikh Muhammad Tamim. Reviewedby. Sheikh Muhammad Abd Al-Mun'im Al- Arryan.(3ed.ed) Dar ihya' Al-Ulum, Bairut. Lebanon.

3 – Abu Suwailm.Dr. Anwar. (1987AD). Rain in pre-Islamic poetry. (1st ed). Dar AL-Jeel. Bairut. Lebanon.

4 - Hassan. Dr. Hussein Al- Hajj.(1988 AD). The Myth Among the Arabs in the pre – Islamic Era. (1st ed).University Foundation for Studies. Publishing and Distribution. Bairut. Lebanon.

5 - Al Hamawi Al- Rumi Al –Baghdadi. by Sheikh Imam Shihab Al-Din Abu Abdullah Yaqut bin Abdullah. (1997AD). Dictionary of Countries(n.d). Dar Sadir. Bairut. Lebanon.

6 - Al- Rubai. Dr. Abdul Qader. (1980AD). The Artistic in Abu Tammam's poetry.(1st ed). Yarmouk University Publications. Irbid. Jordan.

7- Al- Shaib. Ahmed.(1994 AD). principles of Literary Criticism, (10th ed). Nahdet Misr Library.

8 - Al-Shantamari. Explanation of Al-A'lam.(2000 AD). Diwan of Tarafa Bin Al-Abd. edited by. Durya Al-Khatib and Lutfi Al-Saqqal, (2nd ed). Arab Foundation. Bairut. Lebanon.

9-Issa.Abdul Aziz Muhammad.(n.d). Arabic Literature in Andalusia. (n.d). Al-Istiqamah press.

10 – Omar. Dr.Ahmed Mukhtar.(1997AD). Language and color.(2nd ed).Alam Al-kutub.Cairo. Egypt.

11 - Al-Fakhouri. Hanna.(1986AD). The Comprehensive History of Arabic Literature.(1st ed) Dar Al-Jeel. Bairut. Lebanon.

12 – Qutb.Muhammad.(D.T). The Methodology of Islamic Art. (6th.ed). Dar Al-Shorouk. Bairut.

13 –Qanawi.Abdul-Azim.(n.d). Description in Arabic poetry.(n.d). Mustafa Al- Babi Al- Halabi Press. Egypt.

14 – Al-Qaisi. Dr. Nouri Hamoudi.(1970AD). Nature in Pre-Islamic poetry.(1st ed). United Distribution Company. Bairut. Lebanon.